تكوين الصورة

اتبع المسلمون في أول الأمر الطريقة التي كانت سائدة في الفن البيزنطي من حيث، الخطاط هو الذي كان يحد المكان المراد تزيينه بالصور ويبين الموضوع المطلوب توضيحه. ولقد ظلت هذه الطريقة متبعة في المدرسة العربية والمدرسة الإيرانية إلى أن جاء بهزاد، فخرج على هذه القاعدة واختار بنفسه الموضوعات وحدد المساحات.

ولم تكن مساحات الصورة في المدرسة العربية محددة بإطار من الجهات الأربع إلا فيما ندر، وربما كان عدم التحديد هذا أثراً من الآثار المسيحية أو البيزنطية حيث نجد رسوماً غير محددة، وربما كان لطريقة تكوين الكتاب الإسلامي بعض الأثر في عدم التحديد أيضاً، وأقصد من هذه الطريقة التذهيب بالذات؛ لأننا نلاحظ أن التذهيب في العصر العربي كان يعتني بالصفحات الأولى من المخطوطات فيعمل إطارات مزخرفة بخلاف الصفحات الداخلية التي كانت خالية منها.

أما المدرسة الإيرانية وما تلاها من مدارس وتأثر بها فقد حددت مساحة الصور من الجهات الأربع وكان ذلك لعاملين: أولهما التطور الذي أصاب تذهيب الكتاب؛ إذ لم تقتصر العناية على الصفحات الأولى من المخطوطات بل تعدتها إلى الصفحات كلها وعملت لها جميعاً هوامش، وهذا ساعد المصور على تحديد المساحة المخصصة للتصوير.

أما العامل الثاني فهو التأثر بالصين وتغيير فكرة المصور المسلم عن رسومه وميله إلى اعتبارها أكثر من مجرد رسوم توضيحية لنص الكتاب وأن من الممكن اعتبارها لوحة مستقلة بذاتها كما هو الحال في التصوير الصيني.

والملاحظ أن المصور العربي لم يكن يتعدى الخطين الجانبيين للمساحة، في حين أن المصور الإيراني في العصر المغولي استطاع أن يكمل موضوعه في الهامش. وفي أغلب الظن أن المصور اضطر إلى ذلك خصوصاً وأنه لم يكن له حق تحديد المساحة فضلاً عن اختيار الموضوعات.

ولم يكد يخرج فنانو المدرسة الإيرانية في العصر المغولي على العرف المألوف حتى اتبعهم من جاء بعدهم من المصورين في مختلف العصور والبلدان.

وإذا بحثنا عن نظام توزيع وحدات الصور وجدنا أن أسلوب المستوى الواحد هو أول الأساليب التي اتبعت في التصوير الإسلامي وكان يصاحبه في بعض الأحيان مستو آخر إذا ما ضاق خط المستوى الواحد عن استيعاب كل الشخصيات المرسومة.

ثم نجد بجانب هذا المستوى تصميمات أخرى لتوزيع الأشخاص كالشكل الهرمي أو المثلث أو المتوازيات أو البيضي، هذا فضلاً عن تصميمات أخرى يتعذر علينا معرفة كنهها، لأنها تتكون من عناصر متعددة الأضلاع.

وفيما تلا المدرسة العربية من مدارس يتعذر علينا تحديد نوع التصميم الذي اتبع ولو أننا في بعض الأحيان يسهل علينا التعرف عليه كذلك التصميم البيضي الذي استخدمته المدرسة الهندية بكثرة.

وظهور التصميم البيضي للمدرسة العربية راجع إلى التأثر بالحياة العامة ففي المساجد توجد حلقات الدرس وعند مشاهدة الألعاب يلتف الناس حول اللاعبين في حلقات، وهذا ما تدلنا عليه صورة من مقامات الحريري تمثل أشخاصاً يشاهدون بعض الحوادث، ولا نزال نشاهد ذلك إلى يومنا هذا.